إيبارشية جنوبي أمريكا للأقباط الأرثوذكس

الرسالة الشهرية للرهبان والراهبات – أبريل ٢٠٢٤ م

عن الفضائل

"سُئِل شيخاً، "ما هو عمل الرهبان؟" قال، "زراعة كل الفضائل، وجعل أنفسهم غرباء عن كل شر، والحذر من الحكم وإدانة الآخرين، الصلاة، والطاعة. فزراعة الفضائل هي مرآة الراهب." (بستان الرهبان[1])

الإخوة الأحباء،

يُقال عادةً أن الحل لكل مشكلة موجود داخلنا، لكن كيف يتم ذلك؟ كيف يمكننا حل المسائل عندما تكون الظروف في كثير من الأحيان تبدو خارجة عن سيطرتنا؟ دعونا نفحص كيف فهم آباء الرهبنة الأوائل الفضائل ثم سنرى كيف أن هذا صحيح. القديس أنطونيوس الكبير يخبرنا بالتالي عن الفضيلة:

"وبالتالي بعد أن بدأنا، وشرعنا بالفعل في طريق الفضيلة، دعونا نتقدم إلى ما هو قادم. ولا يلتفت أحد للوراء كما فعلت زوجة لوط، خاصةً وأن الرب قال، لا أحد يضع يده على المحراث ويلتفت للوراء يصلح لملكوت السماوات. الآن، 'الالتفات للوراء' لا يعني شيئاً إلا الشعور بالندم والتفكير مرة أخرى في أمور العالم.

ولكن لا تخافوا من سماع الحديث عن الفضيلة، ولا تكونوا غرباء عن المصطلح. فهو ليس بعيداً عنا، ولا يقف خارجاً عنا، بل إدراكه يكمن فينا، والمهمة سهلة إذا كنا نريدها فقط. الآن اليونانيون يتركون منازلهم ويعبرون البحر للحصول على تعليم، لكن لا حاجة لنا أن نذهب إلى الخارج بسبب ملكوت السماوات، ولا لعبور البحر من أجل الفضيلة. لأن الرب قال لنا من قبل، ملكوت الله داخلكم. كل ما تحتاجه الفضيلة، إذن، هو إرادتنا، لأنها فينا، وتنبثق منا. فالفضيلة موجودة عندما تحافظ النفس على جزئها العقلاني وفقاً للطبيعة. تثبت وفقاً للطبيعة عندما تظل كما خُلقت جميلة ومستقيمة تماماً. بقدر ما يتعلق الأمر بالنفس، تكون الاستقامة في كون جزئها العقلاني وفقاً للطبيعة، كما خُلق. ولكن عندما تحيد عن مسارها وتنحرف بعيداً عما هي عليه طبيعياً، عندها نتحدث عن رذيلة النفس.

لذا المهمة ليست صعبة، فإذا بقينا كما خُلقنا، نكون في فضيلة، ولكن إذا حولنا أفكارنا نحو الأشياء المحتقرة، نُدان كأشرار. إذا كانت المهمة تعتمد على شيء خارجي يجب الحصول عليه، لكانت حقاً صعبة، ولكن بما أن الأمر يتمركز فينا، دعونا نحمي أنفسنا من الأفكار الدنيئة، وبما أننا تلقيناها كأمانة، دعونا نحافظ على النفس للرب، حتى يتعرف على عمله على أنه بالضبط كما خلقه.[2]"

---

[1] Ernest A. Wallis Budge, ed., The Paradise or Garden of the Holy Fathers, vol. 2 (London: Chatto & Windus, 1907), 196.

[2] Athanasius of Alexandria, Athanasius: The Life of Antony and the Letter to Marcellinus, ed. Richard J. Payne, trans. Robert C. Gregg, The Classics of Western Spirituality (Mahwah, NJ: Paulist Press, 1980), 46.

يوجد عمق كبير في كلمات أبينا الحبيب القديس أنطونيوس، فلنفحصها لكي نفهم أكثر عن الفضيلة. فهو يخبرنا بأنها "ليست بعيدة عنا، ولا تقف خارجنا، بل إدراكها يكمن فينا، والمهمة سهلة إذا ما أردناها فقط"، و"لأن الرب أخبرنا من قبل، ملكوت الله داخلكم". إنه يقيم علاقة واضحة جداً بين حقيقة أن الفضائل موجودة بالفعل داخلنا، في نفوسنا، لأنها خُلقت "جميلة ومستقيمة تماماً"، وملكوت الله الذي فينا، كما أخبرنا ربنا في لوقا ١٧ :٢١. لذا لا نحتاج إلى البحث خارج أنفسنا كما يواصل قائلاً، "كل ما تحتاجه الفضيلة، إذاً، هو إرادتنا، لأنها فينا، وتنبثق منا. فالفضيلة موجودة عندما تحافظ النفس على جزئها العقلاني وفقاً للطبيعة." نعلم أن كل مملكة لها كنوز عظيمة مخزونة في داخلها، وكنوزنا هي الفضائل التي أعطانا إياها الله عندما خُلقنا، كما يقول القديس أنطونيوس، "فإذا بقينا كما خُلقنا، نكون في فضيلة".

دعونا نرى ما هي هذه الفضائل بالنظر إلى لحن الفضائل[٣]، والعديد منها هو أيضاً نفسه ثمار الروح المذكورة في غلاطية ٥: ٢٢-٢٣. في هذا النشيد المبارك يُذكر إثني عشرة فضائل: المَحَبَّة، الرجاء، الإيمان، الطهارة، البتولية، السَلاَم، الحكمة، البر، الوداعة، الصبر، طُولُ الأَنَاة، والنسك. كل واحدة من هذه الفضائل لها رذيلة تعارضها، كما يخبرنا القديس أنطونيوس أيضاً، "ولكن عندما تحيد [النفس] عن مسارها وتنحرف بعيداً عما هي عليه طبيعياً، عندها نتحدث عن رذيلة النفس." لذا من هذا نتعلم أنه عندما نحيد عن مسارنا، ندخل إلى نفوسنا الرذائل التي تعارض الفضائل، ومن مسئوليتنا أن نستعيد الفضائل التي ستقضي على الرذائل داخلنا، بنعمة الله.

أبا دوروثيوس يخبرنا: "لا تعتبر الفضائل صعبة بشكل مفرط أو لا يمكن الوصول إليها، ولكن ابذل على الأقل جهداً صغيراً وثق بالله. أظهر له حماسك وغيرتك وسترى المساعدة التي يقدمها نحو نجاحك."[٤] من الضروري التيقن أن الفضائل ليست صعبة المنال، ولكن يجب علينا أولاً أن نبذل بعض الجهد ثم نسمح لنعمة الله أن تمنحنا قوة أكبر. إذا اعتبرنا أن كل فضيلة مثل سلم يصعد إلى السماء بعدد كبير من الدرجات عليه، دعونا نصعد، واحدة تلو الأخرى، ومع كل درجة نخطو عليها، سنرى نعمة الله تدفعنا للتقدم أكثر فأكثر، ومع كل خطوة، سنكتسب معرفة أكبر بكل فضيلة وفهماً أعمق لكيفية استخدامها في حياتنا اليومية.

> "الرجل الذي يرغب، بمساعدة الله، في الوصول إلى مثل هذه الحالة المحسودة يجب ألا يقول إن الفضائل كبيرة جداً بالنسبة له أو أنها لا يمكن تحقيقها. فهذا إما عدم الأمل في مساعدة الله أو التقاعس عن شيء جيد. مهما كانت الفضائل التي ترغب بها عليك فقط أن تمارسها وسترى أن لديك في نفسك القوة للنجاح. انظر ما يقول: 'أحب قريبك كنفسك.' بما أنك واعي لمدى بعدك عن الفضيلة، لا تكن جباناً وتسأل، 'كيف يمكنني أن أحب قريبي كنفسي؟ كيف يمكنني الانتباه إلى مشاكله كما لو كانت مشاكلي، خاصة تلك الخفية في قلبه التي لا أستطيع رؤيتها أو حتى معرفتها: كيف يمكنني اعتبارها مشاكلي؟' لا تعذر كسلك بأفكار مثل هذه." [٥]

في حديثه عن الفضائل، يعطي أبا دوروثيوس مثالاً جميلاً عن كيفية تشابه النفس مع بيت يُبنى:

> "وسأخبركم كيف تفعلون ذلك: أولاً يجب أن يضع الأساس، وهو الإيمان. بدون الإيمان، كما يقول الرسول، من المستحيل إرضاء الله. لذا، وفقاً لمقارنتنا، من المستحيل بناء بيتنا الروحي بدون هذا الأساس، أي الإيمان. هل هناك مناسبة للطاعة؟ يجب وضع حجر الطاعة. هل نشأ خلاف بين الإخوة؟ يجب وضع حجر الصبر. هل هناك حاجة لضبط النفس؟ ذلك الحجر يجب أيضاً أن يوضع. فمهما كانت الفضيلة المطلوبة، يجب وضع ذلك الحجر في البناء، وبهذه الطريقة ترتفع حدود البناء. حجر للتسامح، آخر لإماتة الذات، واحد للوداعة، وهكذا. في كل هذا، يجب الانتباه الشديد للمثابرة والشجاعة: هذا هو حجر الزاوية للبناء وبه يتماسك البيت ويتحد كل واحدة بالكل بحيث لا تميل أوتنحل؛ بدونه لن ينجح الإنسان في إتقان أي من الفضائل. إذا لم يكن لدى الإنسان شجاعة في نفسه، لن يتحمل

---

[3] https://tasbeha.org/hymn_library/view/1350 ϯⲙⲏⲧⲛⲟⲩϯ لحن الفضائل تي ميت

[4] Dorotheos of Gaza, Dorotheos of Gaza Discourses and Sayings, Cistercian Studies Series (Volume 33, Trans. Eric P. Wheeler, Kalamazoo, Michigan: Cistercian Publications, 1977), 206.

[5] Ibid, 205–206.

بصبر، وإذا لم يكن لديه صبر فلن ينجح كلياً. لذلك، قيل، 'بصبركم اقتنوا أنفسكم.' وبالمثل، يجب على الباني أن يضع حجارته في ملاط. إذا كدس حجارته بدون ملاط، تتفكك الحجارة ويسقط البيت. الملاط هو التواضع، الذي يتكون من الأرض ويقع تحت أقدام الجميع. أي فضيلة موجودة بدون التواضع ليست فضيلة على الإطلاق، كما يقول في أقوال الشيوخ: 'كما يستحيل بناء سفينة بدون مسامير، فلا أمل في الخلاص بدون التواضع.' مهما فعل الرجل الصالح، يجب أن يفعله بتواضع حتى يُحفظ ما يفعله. ولكن إلى جانب كل هذا، يحتاج البيت إلى ما يسمى بالأعمدة الرابطة أو الدعامات — أي الاعتدال — الذي، بالإضافة إلى إضافة الكثير إلى مظهره، يجمع البناء كله معاً. السقف هو المحبة، والتي هي إتمام الفضيلة كما يكمل السقف البيت. بعد السقف يأتي تتويج مكان الإقامة؛ وما هو هذا التتويج؟ في الشريعة مكتوب، 'إذا بنيت لنفسك بيتاً وجعلته مسكنك، ضع سوراً حول السطح، لئلا يسقط أطفالك من أعلي.' السور هو التواضع. فهو تاج وحارس جميع الفضائل. كما تحتاج كل فضيلة إلى التواضع لاكتسابها — وبهذا المعنى قلنا كل حجر يوضع بملاط التواضع — كذلك إتمام جميع الفضائل هو التواضع. القديسون، أثناء تقدمهم نحو هذا الكمال، وصلوا إلى التواضع — هذا هو السبب في أننا دائماً نقول إن الرجل الذي يقترب أكثر فأكثر من الله يرى نفسه خاطئاً أكثر فأكثر. لذا تكتمل جدران حماية البيت الواقية وسقفه من الفضائل، ها هو بيت الكمال الذي نتحدث عنه، مكتملاً بفضيلته المتوِجة التواضع، وكل ما يحتاجه لإتمامه."[٦]

يمكننا الآن أن نرى بوضوح، من كلمات آبائنا القديسين، القديس أنطونيوس وأبا دوروثيوس، أن الحل لكل مشكلة موجود داخلنا بسبب الفضائل التي يجب علينا أن نسعى جاهدين لاكتسابها. يعطي أبا دوروثيوس العديد من الأمثلة خلال حديثه مثل عندما قال، "هل نشأ خلاف بين الإخوة؟ يجب وضع حجر الصبر. هل هناك حاجة لضبط النفس؟ ذلك الحجر يجب أيضاً أن يوضع." إذا وسعنا أكثر على تشبيهه للبيت الذي يُبنى، يمكننا أن نقول إننا عندما نواجه أي موقف أمامنا، إذا لم نكن قد وضعنا بعد ذلك الطوب الخاص بفضيلة ما، يجب علينا إضافته إلى منزلنا. للقيام بذلك يجب علينا أولاً الاعتراف بأننا نفتقر إلى هذه الفضيلة بالذات التي كانت ستكون الحل المثالي لما نواجهه في تلك اللحظة بالذات، ثم سنضع، طوبة تلو الأخرى، جميع الفضائل اللازمة للرد على المواقف التي نواجهها طوال حياتنا.

هناك بعض الخطوات العملية التي يمكننا اتخاذها لتحقيق ذلك. يجب على المرء أولاً أن يجلس مع نفسه ويتأمل في الفضائل الاثني عشر ليحدد مكانه على سلم كل فضيلة. يمكننا أيضاً التعلم من اعترافاتنا أي الفضائل نحتاج لأن كل رذيلة لها فضيلة تقاومها. بعد ذلك، يجب علينا دراسة الفضيلة وفهمها لنعرف كيف نكتسبها. يمكننا البحث عنها في الكتاب المقدس ورؤية كيف استخدمها الرجال والنساء الصالحون عبر التاريخ. يمكننا القراءة عن الفضائل في كتابات الآباء الأولين، خاصة آباء الرهبنة. كما يمكننا النظر إلى القديسين الذين عاشوا منذ الأزمنة الكتابية وحتى عصرنا هذا ورؤية أي الفضائل كانت لديهم وكيف استخدموها في حياتهم. بمجرد أن نفهم الفضيلة، يمكننا البحث عن فرص لممارستها لننمو فيها. على سبيل المثال، إذا رغب أحد في النمو في فضيلة المحبة، نعلم أن المحبة تتجلى في أفعالنا، لذا يمكننا رؤية كيف يمكننا خدمة إخوتنا وتقديم المحبة لهم. يمكننا إيجاد فرص للعمل معاً ومساعدة بعضنا البعض، يمكننا تقديم هدايا للأعضاء الجدد في مجتمعنا لجعلهم يشعرون بالحب والقبول، ويمكننا السؤال عن الذين يعانون من المرض وخدمتهم في وقت الحاجة. هناك العديد من الطرق التي يمكن من خلالها ممارسة كل فضيلة ويحتاج المرء إلى البحث بجد عن طرق للنمو في كل فضيلة. "من يحرص على الحفاظ على هذه الفضائل سيكون قادراً على الخلاص برحمة الله."[٧]

فليمنحنا الرب النمو في الفضائل التي ستجعلنا أقرب إلى المسيح يوماً بعد يوم.

---

[6] Dorotheos of Gaza, Dorotheos of Gaza Discourses and Sayings, Cistercian Studies Series (Volume 33, Trans. Eric P. Wheeler, Kalamazoo, Michigan: Cistercian Publications, 1977), 203.

[7] Ernest A. Wallis Budge, ed., The Paradise or Garden of the Holy Fathers, vol. 2 (London: Chatto & Windus, 1907), 278.